ابن عُنَيْن

شاعر القرن السابع

هو محمد بن نصر الدين بن نصر بن الحسين بن عُنين الأنصاري ، وعنين بضم العين المهملة وفتح النون وسكون الياء المثناة من تحتها وبعدها نون ، كنيته ابو المحاسن ولقبه شرف الدين . أصله من الكوفة وولد في دمشق ومات فيها (٥٤٩ — ٦٣٠ هـ)

تأدب ابن عنين بأدب عصره واخذ عن مشايخ بلده ما تيسر له أخذه . اشتغل في دمشق بالفقه على القطب النيسابوري والكمال الشهرزوري ، وقرأ الأدب على أبي الثناء محمود بن رسلان وسمع ببغداد من منوجهر بن تركانشاه راوي مقامات الحريري ، وعني كثيراً باللغة حتى عدّ من علمائها في عصره ، وكان يستحضر كتاب الجمهرة لابن دريد وقد اختصره ، وكتب في النثر تاريخ العزيزي ، وقد فقد كالا التأليفين .

وجاء من ابن عنين شاعر مطبوع يجول في أكثر اغراض الشعر وجوّد في جولاته وموضوعاته فعدّ من اعظم شعراء زمانه ، وشعره في الوصف والشعر العاطفي آية ، واشتهر بين الناس بهجوياته . واذ لم يكن له غرض في جمع شعره لم تسمُ همته الى تدوينه ، فهو يوجد مقاطيع في ايدي الناس . وقد جمع له بعض اهل دمشق قديماً ديواناً صغيراً لا يبلغ عشر ما له من النظم الرائع ، وقيل ان فيه اشياء ليست له .

طار صيت ابن عنين بهجوياته ، وما كان ينجو من هجوه كبير ولا صغير . وشعره في الهجو خال من الاقذاع في الجملة ، وربما ضحك المهجوّ منه وساشه بما نال وافترى . وله في باب الاهاجي قصيدة يداعب فيها جماعة من الدمشقيين ، وهي القصيدة المعروفة بمقراض الأعراض افتتحها بقوله :

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

أضالع تنطوي على كرب ومقلة مستهلة الغرب
شوقًا الى ساكني دمشق فلا عدمت رباها مواطر السحب
منازل ما دعا تذكرها الا ولبى على النوى لبي

وقد ذكر فيها جماعة بأبشع الأوصاف وختمها بقوله :

وحين أبصرت دولة الأحـ ـدب أربت على علا الشهب
فقلت للمفلسين ويحكم تحادبوا فهي دولة الحُدْب

هجا ابن عنين العلية من قومه ومنهم المؤيد بن القلانسي والجمال بن المهدي الكاتب والقاضي ابن عصرون والقاضي الفاضل وزير صلاح الدين وكاتبه . وكان وقوعه على ما يظهر في القاضي الفاضل سببًا اعظم في غضب صلاح الدين عليه ، فأمر بتسييره من دمشق بسبب وقوعه في الناس ونفاه الى اليمن فمدح صاحبها طفتكين من اخوة صلاح الدين . طاف شرف الدين البلاد من الشام والعراق والجزيرة واذربيجان وخراسان وغزنة وخوارزم وما وراء النهر ، ثم دخل الهند ورجع من طريق الحجاز الى الديار المصرية ، وقد مات صلاح الدين وتملكها اخوه الملك العادل ابو بكر بن ايوب ، فسار متوجهًا الى دمشق وكتب اليه قصيدته الرائية يستأذنه في دخول الفيحاء ويعدد ما قاساه في الغربة ، قال في الوفيات : وقد احسن فيها كل الاحسان ، واستعطفه ابلغ استعطاف ، وأولها :

ماذا على طيف الأحبة لو سرى وعليهم لو سامحوني في الكرى

وصف في أوائلها دمشق وبساتينها وانهارها ومواضع متنزهاتها ومما قال :

فسقى دمشق ووادييها والحمى متواصل الارهام منفصل العرى
حتى نرى وجه الرياض بعارض أحوى وفوه الدوح ابيض ازهرا
تلك المنازل لا ملاعب عاتك ورمال كاظمة ولا وادي القرى
أرض اذا مرت بها ريح الصبا حملت على الأغصان مسكًا أذفرا

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ثم عاد مشيراً الى النفي منها :

فارقتها لا عن رضًا ، وهجرتها لا عن قلىً ، ورحلت لا متخيرا
أسعى لرزق في البلاد مشتت ومن العجائب ان يكون مقترا
وأصون وجه مدائحي متقنعًا وأكف ذيل مطامعي متسترا

ومنها يشكو الغربة وما قاساه فيها :

أشكو اليك نوىً تمادى عمرها حتى حسبت اليوم منها أشهرا
لا عيشتي تصفو ، ولا رسم الهوى يعفو ، ولا جفني يصافحه الكرى
أنحى عن الأحوى المريع محوّلاً وأبيت عن ورد النمير منفرا
ومن العجائب أن يقيل بظلكم كل الورى وأُنبذت وحدي بالعرا

قال ابن خلكان وهذه القصيدة من أحسن الشعر ، وعندي أنبا هي خير من قصيدة ابي بكر بن عمار الأندلسي التي أولها : « أدر الزجاجة فالنسيم قد انبرى » ، ولما نفي من دمشق قال :

فعلام أبعدتم أخا ثقة لم يجترم جرمًا ولا سرقا
أنفوا المؤذن من ديارهم ان كان ينفى كل من صدقا

ولما عاد اليها وتقدم بها عند المعظم قال :

هجوت الأكابر في جلقٍ ورُعت الوضيع بهجو الرفيع
وأخرجت منها ولكنني رجعت على رغم أنف الجميع

ووصل به الحال ان هجا بعض الملوك الأيوبيين ، فانه لما ورد من اليمن الى مصر وطلبوا منه موجب ما ورد معه ، قال يهجو الملك العزيز صاحبها :

ما كل من يتسمى بالعزيز لها أهل ولا كل برق مجبه غدقه
بين العزيزين بون في فعالهما هذاك يعطي وهذا يأخذ الصدقه

وقال في العادل سيف الدين بن ايوب :

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ان سلطاننا الذي نرتجيه واسع المال ضيق الإنفاق
هو سيف كما يقال ولكن قاطع للرسوم والأرزاق

وهذا هجو خفيف على القلب غير ثقيل على السمع ، لا بذاءة فيه ويحمل نكتة لطيفة . وهنا يعرض على الخاطر لماذا شق على الشاعر ان يطلع عمال المكوس على مافي متاعه ، وقد آب من سفرته هذه أبجر الحقائب ، وجمع من جوائز صاحب اليمن وجوائز غيره اموالاً اتجر بها فقدروا ما تموّله بثلاثين الف دينار ، ومن كان يملك هذا وهو في عقل ابن عنين ومعرفته ، لا يشق عليه ان يدفع حق الدولة ، هذا ان لم يكن ممن اعتادوا الأخذ ولا يعرفون العطاء ، ولا يرون ابداً غير الزيادة في وفرهم .

قال من ترجموا لابن عنين : انه كان من اظرف الناس واخفهم روحاً واحسنهم مجوناً ، وكان وافر الحرمة عند الملوك ، ولما عاد الى دمشق تولى الوزارة بدمشق في آخر دولة الملك المعظم ومدة ولاية الملك الناصر ، وانفصل منها لما ملكها الملك الاشرف ، قال الصفدي في الوافي : انه لما ولي كان محمود الولاية ، كثير النصفة ، مكتوف اليد عن اموال الناس ، مع عظم الهيبة . فمن يخطبه الملوك لتولي أمور الدولة ، فيه ولا شك شيء من أخلاق العظماء ، وليس هو بالشاعر الذي يجوز لنفسه ان يمد كل حين يده لمن يفضل عليه بشيء ، وأخلاق الشعراء غير اخلاق الأمراء .

لا جرم ان ابن عنين آلم بهجوه بعض المشهورين ، وما استطاعوا ان يصموه الا بما جرت العادة ان يصم به الخصم خصمه ، واهم ما وصموه به تكفيره وتبديعه وتفسيقه ، فقالوا انه كان يخلّ بالصلاة ، ويصل ابنة العنقود ، واشتد بعضهم واوغل فرماه بالزندقة ، وكل اولئك تهمات سهلة النطق على الناقمين والموتورين ، ولو كان كما زعموا زنديقاً ما عمر مسجداً بأرض الجزة مزة كلب واوصى أن يدفن فيه ،

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ولو كان منحلاً من العقيدة ما اختاره ملكان عظيمان للوزارة والملوك من أخوف الناس من الرأي العام واعداؤه وابناؤهم واحفادهم يحصون عليه انفاسه .

ولا نعتقد نفرة بعضهم منه الا بسبب هجائه لهم ، وهجوه ينبعث على الأغلب من نكتة اذا جاءته ارسلها . ولو كانت في عظيم لا يستحقها وتؤذيه فيحنق عليه بها . ولو كان يحسب لكل ما يبتدهه من شعره حساباً لما هجا القاضي الفاضل ، وهو اعظم رجال عصره في السياسة والادب ، ومن أشرف رجال الدولة على التحقيق . نعم أخذ كما قال ياقوت ، في الهجو بنفس طويل ، وتفنن بأساليب السب والثلب ، فأورد مالا يحسن ايراده حتى لقد هجا أباه ايضاً بقوله

وجنبني أن أفعل الخير والد ... ضئيل اذا ما عد اهل المناسب
بعيد من الحسنى قريب من الخنا ... وضيع مساعي الخير جمّ المعايب
اذا رمت ان اسمو صعوداً الى العلى ... غدا عرقه نحو الدنية جاذبي

ونحن نشك كثيراً في نسبة هذا الهجو له ، ولعل هذه الابيات مما نحله اياه اعداؤه وخصماؤه . وممن هجاه ، والغالب انه كان يتبرم بعشرته ، ابن المهدي في جواب رقعة طويلة ارسلها اليه :

وردت منك رقعة أسأمتني ... وثنت صبري الجميل كلولا
كنهار المصيف حراً وكرباً ... وليالي الشتاء برداً وطولا

كان لشرف الدين دقة احساس الشاعر ، وكان جهبذاً نقادة ، وربما كان قومه يريدون منه ان يقرّهم على مساويهم ، فما رأى غير اداته الشعرية يصوبها اليهم كل حين يشفي بها صدره من انحطاطهم والتواء أخلاقهم ، فمن ذلك قوله في الرشيد النابلسي ، وقد صفع ، يداعبه بل يثلبه :

تعجب قوم لصفع الرشيد ... وذلك ما زال من دابه
رحمت انكسار قلوب النعا ... ل وقد دنسوها بأثوابه

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

فوالله ما صفعوه بهـا ولكنهم صفعوهـا به

وقال يهجوه وابن شيث ويضيف نفسه اليهما :

انا وابن شيث والرشيد ثلاثة لا يُرتجى منا خلق فائده

من كل من قصرت يداه عن الندى يوم الجدا وتطول عند المائده

فكأننا واو بعمرو أُلحقت أو اصبع بين الاصابع زائده

وقال يهجو الموفق ابن مطران :

وقالوا اسعد بن الياس اضحى رئيسـاً لا حوته يد السعود

ولا اهجـو الوجود وقد حواه لأن وجوده هجو الوجود

وقال يهجو ابن عساكر المعروف بخبز بدبس :

يا خليطاً بالدبس قصر عن الشـ ـر فقد قيل رابح الشر خاسر

وترفق بالجند فالجنـد آبا ؤك ان صحّ انك ابن عساكر

اذا صح الحكم عليه بهذه الأهاجي ، ومـا رأينا له في الموضوع الواحد غير البيتين والثلاثة ، ومعظمها مرتجلة على ما يظهر يوردها في مجلسه أو مع اصحـابه ، واكثرها مما يتعمده للنكتة ، فلنا أن نقول انهـا تنوقلت بين القوم لسلاستها وخفتها على النفس ، ولطالما تنوقل الرديء المختصر وزهد في الجيـد المطول ، والا فان لابن عنين قصائد ومقاطيع قالها في احوال كارثة كانت هي اولى بأن تشهره بين الناس ، وان يتناقلوها ويتدارسوها ، خصوصاً ما صدر عنه في غربته ، وقد طالت على ما يظهر ، وما كان يحمله رسائله الى اصحابه وغيرهم من هذا القبيل فقد قال من جملة قصيدة يذكر فيها اسفاره ويصف توجهه الى جهة المشرق :

أشقق قلب الشرق حتى كأنني افتش في سودائه عن سنا الفجر

وقوله لأحد أصحابه بدر الدين مودود الشحنة كان بدمشق (مدير الشرطة) :

يذكرني البرق الشآمي ان خبا زماني بكم يا حبذا ذلك الزمن

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وياحبذا الهضب الابيل و«عزتا» اذا ما بدا والثلج قد عم القنن

أأحبابنا لا أسأل الطيف زورة وهيهات اين «الديلميات» من «عدن»

وقد ذكر «عزتا» غير مرة في شعره والغالب انها كانت مصطافه ولعلها كانت قرب الفيجة على ما يفهم من اماكن اخرى ، والديلميات من ضواحي دمشق ، وعدن بلد معروف في اقصى بلاد العرب . وكما هجا شاعرنا الرجال هجا البلدان أيضاً ومما قال في الهند :

واذا سقى الله البلاد فلا سقى بلد الهنود سوى الصواعق والدما

وقال في حلب سامحه الله :

قوم عهود رجالهم محلولة ابداً وعهد نسائهم لم يحلل

من كل مائسة الثياب رشيقة رُود الشباب كريمة في هيكل

وقال في جامع دمشق لما سلسلت ابوابه وفيه نكتة بديعة .

سلوه اذا اجابكم سلوه سلوه جُنَّ حتى سلسلوه

ولولا انكم بقر حمير لما منعوكم أن تدخلوه

وقال في المعنى :

لما رأى الجامع أمواله منهوبة ما بين نوابه

جُنَّ فمن خوف عليه غدا مسلسلاً في كل ابوابه

وكيف لا تعتاده خيفة وقد رأى المسخ لاربابه

القرد في شباكه حاكم والتيس في قبلة محرابه

مدح ابن عنين الملك المعظم في عدة قصائد وكان يذكره بيوم دمياط مع الصليبيين ومما قال :

وأذكرته أيام دمياط بيننا وبين العدى والموت تهوي عقابه

وقال من أخرى :

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

غداة لقينا دون دمياط جحفلا ... من الروم لا تخفى يقيناً ولاظنا
قد اتفقوا رأياً وعزماً وهمة ... وديناوان كانوا قداختلفوا لُسنا
تداعوا بأنصار الصليب فأقبلت ... جموع كأن الموج كان لهم سفنا

وقال في رثائه :

لولا دفاعك بالصوارم والقنا ... عن حوزة الاسلام عاد كما بدا
وديار مصر لو ونت عزماته ... عن نصرها لتمكنت منها العدا
ولأمست البيض الحرائر كلها ... فيهـا سبايا والموالي اعبدا
ولأصبحت خيل الفرنج مغيرة ... تجتاب ما بين البقيع الى كُدا
وبثغر دمياط فكم من بيعة ... عُبد الصليب بها وكانت مسجدا
انقذتها من خطة الخسف التي ... كانت احلتها الحضيض الاوهدا

ومدح فخر الدين الرازي وسيرها اليه من نيسابور الى هراة ، ولما كان بخوارزم حضر يوماً درس هذا الامام العظيم ، وكان يوماً بارداً سقط فيه الثلج ، فبينما الشيخ يلقي الدرس اذ سقطت حمامة بالقرب منه ووراءها طير من الجوارح يطاردها ، فلما صارت بين الناس خاف الجارح وطار ، ولم تقدر الحمامة على النهوض مما لحقها من الخوف والبرد ، فرقّ لها الامام فخر الدين وأخذها بيده وحنى عليها فأنشده ابن عنين مرتجلاً :

يا ابن الكرام المطعمين اذا شتوا ... في يوم مسغبة وثلج خاشف
العاصمين اذا النفوس تطايرت ... بين الصوارم والوشيج الراعف
من نبأ الورقاء ان محلكم ... حرم وانك ملجأٌ للخائف
وفدت عليك وقد تدانى حتفها ... فحبوتها بيقائها المستأنف
ولو انها تحبى بمال لانثنت ... من راحتيك بنائل متضاعف
جاءت سليمان الزمان بشكوها ... والموت يلمع من جناحي خاطف

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

قوم يطاردها فلما استأمنت بجنابه ولى بقلب واجف

فطرب لها فخر الدين واستدناه واجلسه قريباً منه وبعث اليه لما قام من مجلسه خلعة ودنانير كثيرة وبقي دائماً محسناً اليه .

ومن نكاته الشعرية انه شهد في بغداد مسألة عرضت على القاضي فما اخلى حكمه فيها من لاذع تنكيته ، وذلك انه كان بمدينة السلام رجل له زوجة ويتردد الى الزوجة شاب تزعم أنه اخوها ، فجاء الزوج بعض الايام فرآه معها فمنعه من العبور الى بيته وتحاكما على دعوى الزعم فلم يمنع المذكور من الدخول اليها ، وكان اسم العاشق غياث واسم الزوج عمرو . ولم يستطع الزوج طلاقها لحبه لها فقال ابن عنين :

غياث فاسمعوا قولي وعمرو لهم عندي احاديث ظريفه
فزانٍ ما عليه من جناح وقواد بتوقيع الخليفه

وقال فيهما أيضاً :

غياث وعمرو فاسمعوا ما علمته لشيخين عندي من شنارهما شانُ
غياث نفى عن نفسه الحدّ في الزنا وعمرو بتوقيع الخليفة قرنانُ

حركت الغربة في شرف الدين أشرف عواطفه ، واهاج البعاد دقيق أحاسيسه ، وتجلت صورة نفسه يوم أقصوه عن أرضه وأهله ، كأن السلطان ما نفاه عن بلده الا ليتغنى به ويتغزل بطبيعته الفتانة ، وليعرف الناس تفوق بلاده على غيرها في كل ما تحبو به الطبيعة الاصقاع والبقاع . كان ذلك هجيراه في كل مكان نزله ، وفي كل قصيد قصده ، والفضل في كل ذلك لمن نفاه فنفعه ونفع الأدب به ، قال من قصيدة يمدح بها صاحب اليمن السلطان طغتكين :

فأقبلت اجتاب البلاد كأنني قذىً حال دون النوم في اعين رُمد
فلم يبق حزن ما توقلت حزنه ولم يبق سهل ما جررت به بردي

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

اكد ويكدي الدهر في كل مطلب فيابؤس دهري كم اكد وكم يكدي
طريد زمان لم يجد لصروفه بغير ذرى الباب العزيزي من ورد
فلما استقلت في ذراه بي النوى وألقت عصاها بين مزدحم الورد
تنصل دهري واستراحت من الوجى قلوصي ونامت مقلتي وعلا وجدي

قال في مطلع قصيدة يمدح بها السلطان المعظم شرف الدين عيسى بن ابي بكر ابن ايوب :

اذا جبل الريان لاحت قبابه لعيني وبانت من سنير هضابهُ
وهبت لنا ريح أتتنا من الحمى تحدث عما حملتها قبابه
وقامت جبال الثلج زهراً كأنها بقية شيب قد تلاشى خضابه
ولاحت قصور الغوطتين كأنها سفائن في بحر يعب عبابه
لثمتُ الثرى مستشفياً بترابه ومن لي بأن يشفي غليلي ترابه

وقال يتغزل ويتشوق الى دمشق:

الا خبروني عن حمى «تل راهط» يلذ به سمعي وان فاتني النظر
وقصوا أحاديث «المصلى» وأهلها عليَّ فما لي في سوى ذاك من وطر
لقد طال عهدي بالمصلى وليتني رأيت المصلى او سمعت له خبر

وقال من قصيدة يمدح طغتكين :

ومحال قولي لنفسي عزاء سرعة السير شيمة الأقمار
لو تخلى القطا لنام ولو خليت لم أرم عن وجاري وجاري
ولو اني خيرت في هذه الدنـ يا لما اخترت غير قومي وداري

وقال منغزلاً يتشوق الى دمشق :

يا بزقُ حيّ اذا مررت بعزتا أهلي وان زادوا جفا وتعنتا
أبلغهم عني السلام قل لهم أحبابنا هذا الصدود الى متى ؟

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

طال انتظاري للتلاقي فاجعلوا لصدودكم أجلاً يكون موقتاً

وكتب من بلاد الهند الى اخيه بدمشق هذين البيتين والثاني منهما لأبي العلاء ري استعمله مضمناً فكان احق به وهما :

سامحت كتبك في القطيعة عالماً ان الصحيفة لم تجد من حامل

وعذرت طيفك في الجفاء لأنه يسري فيصبح دوننا بمراحل

وعلى الجملة فان ابن عنين شاعر عظيم بل هو كما قال ابن خلكان خاتمة الشعراء يأت بعده مثله ولا كان في اواخر عصره من يقاس به ، ولم يكن شعره مع ودته مقصوراً على أسلوب واحد بل تفنن فيه ، وكان غزير الأدب من الأدب ، مطلعاً على معظم أشعار العرب ، وكان له في عمل الألغاز وحلها اليد الطولى ، فمتى كتب اليه شيء حله في وقته ، وكتب الجواب أحسن من السؤال نظماً . رحمه الله .

محمد كرد علي

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net